تنقصه البينات وهو منجذبٌ إلى الهدى، ومنهم من تنقصه الهدى دون البينات، فـ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾[1].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾:

هنا استثناء عن اللعنة الناتجة عن الكتمان بتوبة عنه، ولا فقط قلبية بينه وبين ربِّه، بل ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾ ما أفسدوا بكتمانهم ﴿وَبَيَّنُوا۟﴾ ما كتموا، ومنه كتمانهم كتمانَهم، إذ كانوا كاتمين أنهم كانوا كاتمين، فكلّ من فسد وأفسد بكتمانُهم لا بدّ وأن يصلحوه معرفياً وعملياً، فمن كان حياً فأصلحه وبيّن له فله، ومن مات على فساد الكتمان فعليه، وتوبة الله عليه تختص بما أصلح وبيّن دون سواه، قاصراً عنهما بموته أم مقصراً بتكاسله، فإنه على أية حال مُقصرٌ في كتمانه ولا عفو كلياً إلّا إصلاحه.

فحين يتوب ويستطيع الإصلاح عما كتم والبيان لحدٍّ يرجع المضلَّل عما ضل بكتمانه، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ وحين لا يتوب إطلاقاً فـ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ في الأولى والأخرى، وحين يتوب ولا يصلح أو يُبيّن على مكنته مقصراً، أم لا يتمكن لصمود المضلّل على ضلاله أم موته، فهو عوان بينهما، فالتوبة درجات كما الكتمان دركات و﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[2]، ولأن قبول التوبة رحمة من الله وحنان، فهي غير مفروضة على الله إلّا كما كتب على نفسه، فهنا يسقط السؤال أنه حين لا يقدر على إصلاح ما أفسد ولا البيان فما هو ذنبه في قصور، حيث الجواب أنه معاقب على ما قصر اللهم إلّا فيما جَبر، فهو بالنسبة لما لم يجبر من كتمانه مستحق اللعنة قصر أم قصّر مهما بان البون بينهما.

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٥.
(٢) سورة الطور، الآية: ٢١.

وإذا لم يستطع هو على الإصلاح بنفسه والبيان فليحاول فيهما بعلماء ربانيين بإمكانهم ما هو عنه قاصر، حيث إن واجب الإصلاح لا يختص بنفسه دون وسيط.

فهؤلاء المصلحون الذين بيّنوا بعد ما أفسدوا بما كتموا، يفتح لهم القرآن هذه المنافذ المضيئَة الثلاث، ذريعةَ الخلاص، يفتحها لهم فتنسِّم لهم نسمة الأمل على ضوء جادِّ العمل، في إعلان صارخ لكلّ التائبين المصلحين: ﴿وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

فأما المصرُّون على كتمانهم فلا يزدادون إلّا لعنات على لعنات:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٦١﴾:

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أيّاً كان كفرهم، ولا سيّما كفر الجحود بالله أم برسالات الله، أم وكفر الكتمان لما أنزل الله من البينات والهدى ﴿وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ﴾ دون توبة وإصلاح ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ﴾ إبعاداً عن رحمته ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ إمساكاً عن إنزالها بإذن الله، واستمساكاً بالله في ذلك الإبعاد ﴿وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ قد تعني جمع الناس إلى الملائكة، ثم جمعهم في لعنتهم إلى الله استدعاء منه، مهما خرج ناس عن كونهم لاعنين كالملعونين أنفسهم وأضرابهم، أم وهم أنفسهم يلعنون أنفسهم بما حرموها عن رحمة الله، كلعنةٍ تكوينية إلى تشريعية لمكلفي المؤمنين ﴿مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾[1]، وهل ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ هنا تعمّ المرتدين عن إيمان؟ طبعاً نعم، مهما كان منهم الذين لم يؤمنوا وأمامهم دلائل صدق الإيمان، وكذلك الذين كفروا لا عن إيمان ولا عن دلائل الإيمان الحاضر، وإنما لم يفتشوا عن صالح الإيمان، فقد تشمل ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ثالوثه مهما كانوا دركات كما الإيمان

(١) سورة هود، الآية: ١١٩.

درجات وهل إن الموت هنا - فقط - هو حتف الأنف، فإن جنّ على كفره ثم مات بعد ردحٍ لم يمت كافراً حيث المجنون لا مؤمن ولا كافر؟.

القصد من الموت هو انقطاع التكليف دونه، إن لم يكن يفيق في حياة التكليف عن جِنّة كفره، وليست النجاة عن وصمة الكفر إلّا بالتوبة الصالحة وهذا لم يتب حتى جنَّ ومات على جِنته، فقد مات وهو كافر، أم مات عن حياة التكليف على حاله، أم ولأقل تقدير لم يتب، والمستثنى من اللعنة هو التائب المصلح المبين!.

صحيح أن المجنون لا هو مؤمن ولا كافر، ولكن الذي كفر ثم جنّ ومات على جنونه لم يمُت وهو مؤمن فما هو السبب لتكفير عن كفره، بل مات وهو كافرٌ حيث استمر كفره إلى جنونه وهو مرحلة من موته، مهما لم يكن مكلفاً حال جنونه.

وهل إن أضرابهم من الكفار - أيضاً - يلعنونهم كما المؤمنون؟ وهم يستحسنون كفرهم! إنهم يلعنونهم هنا إبعاداً زائداً عن رحمة الله بما يستحسنون: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾[1] كما وكلّ كافر يلعن الكفار والظالمين زعماً منه أنه مؤمن جهلاً مقصّراً.

وقد تلمح آيتنا أن التوبة عن الكفر قبل الموت - أيّاً كان - مقبولة بشروطها، والقول الفصل حول أحكام الكفر والارتداد والتوبة راجع إلى محله الأليق كآل عمران: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٢٥.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾[1].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾:

والخلود - كما لمحنا له في مختلف المجالات - هو البقاء مدة طويلة، و﴿لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ﴾ وما أشبه لا تدل على لا نهائية العذاب، بل هو دليل عدم تخفيفه ما داموا ودام العذاب قدر الاستحقاق، وأما إذا فنوا بفناء النار فليس ذلك تخفيفاً في أيٍّ من الأعراف إلّا إذا فنت النار قبل ذوقهم ما يستحقون من العذاب، أم خرجوا عن النار قبل كمال العذاب الذي يستحقون، فإنهما تخفيف عن مدة العذاب، أم خفَّف عنهم العذاب عِدّة لا مدّة، أم خفَّف فيهما، فكلُّ ذلك تخفيف، وأما إذا ذاق مُستّحق العذاب كمّاً وكيفاً ثم فني بفناء النار، أم أخرج قبل فنائها باستحقاق، فما ذلك بتخفيف في العذاب.

فأُسطورة اللّانهائية في العذاب كشريطة تدار بين من لا يحسبون لحق الله وخلقه حساباً ولا يرجون لله وقاراً أم هم غافلون، إنه ظلم عظيم أن يُقابل العصيان المحدود بأثر محدود من عاصٍ محدودٍ، بعذاب غير محدودٍ فـ ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[2]؟!.

وضمير التأنيث في ﴿فِيهَاۖ﴾ راجع إلى اللعنة، فهم - إذاً - خالدون - ما هم أحياءٌ في النار - في لعنة مثلثة الزوايا، فهي تجنح إليهم وهم في النار بما خلّفوا من سنة الكفر والكتمان، كما ويعذّبون بهذه اللعنات في أمد الخلود أبدياً وسواه.

(١) سورة آل عمران، الآيات: ٨٦-٩١.
(٢) سورة النمل، الآية: ٩٠.

ثم ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ في خلود العذاب غير المخفَّف عنهم، حين يستنظرون، بل يقال لهم ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾[1].

ذلك لأنهم أغلقوا على أنفسهم كلَّ منافذ الرحمة يوم الدين، فقد حملوا معهم لعنة مطبقة من كلّ لاعن لا ملجأ منها ولا صدر حنون، وتلك اللعنة هي أم العذاب وأساسه، والنار هي مؤله ومساسه، لعنة متسيطرة ما دام في حياة التكليف جِنّة أو ناس، حيث إن كفر الكتمان خلّف لعنة طولَ خط الحياة، على المؤمنين خلقاً لجوِّ اللّاإيمان، مما شكَّل عليهم مصائب لتطبيق الإيمان، فأشكل عليهم حياةَ الإيمان، وعلى سواهم من قاصرين إذ ابتعدوا عن الإيمان، وعلى المقصرين إذ أوثق رباط كفرهم ضد كتلة الإيمان.

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾:

هنا وحدة الألوهية مزودة بآيات سبع ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ حقّ العقل، وهي: «١ - خلق السماوات والأرض - عبارة أخرى عن خالقيته - ككلّ - لكلّ كائن، ٢ - واختلاف الليل والنهار، ٣ - والفلك...، ٤ - وما أنزل الله، ٥ - وبث فيها...، ٦ - وتصريف الرياح، ٧ - والسحاب المسخر».

و«إن الله تبارك وتعالى أكمل للناس الحجج بالعقول ونصر النبيِّين بالبيان ودلهم على ربوبيته بالأدلة فقال: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ...﴾[2].

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٨.

(٢) نور الثقلين ١: ١٤٩ في أصول الكافي بعض أصحابنا رفعه عن هشام بن الحكم قال قال لي أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام: يا هشام...

فإن «وجود الأفاعيل دلّت على أن صانعاً صنعها»[١] وهذه الأفاعيل السبعة دالة بإتقان على خالق ومدبر واحد ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ حيث الرحمة الرحمانية العامة والرحيمية الخاصة هنا وهناك نجدها بانتظام دون تفاوت واصطدام: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾[٢]؟!.

آيتنا تلك هي من أوسع الآيات التوحيدية دلالة على توحيده تعالى من جوانب شتَّى، وفي أسباب النزول أنها نزلت بديلة عما اقترحته قريش عليه ﷺ «أن يجعل لنا الصفا ذهباً...»[٣].

الآية الأولى من السبع:

١ - ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وترى أنه «خلْقُه السماوات...»؟ والناكر لربوبيته ناكرٌ لخلقه واحداً أو كثيراً، مهما اعترف المشركون أنه خالق!.

فكأن ﴿خَلۡقِ﴾ هنا بمعنى «مخلوق»: إن في مخلوقية السماوات والأرض، أو أنه ﴿خَلۡقِ﴾ دون فاعل مصرّح، يُصرِّح به الكون المخلوق،

(١) المصدر عن كتاب التوحيد قال هشام فكان من سؤال الزنديق أن قال: فما الدليل عليه؟ قال أبو عبد الله عليه السلام: وجود الأفاعيل... ألا ترى أنك إذا نظرت إلى بناء مشيد مبني علمت أن له بانياً وإن كنت لم تر الباني ولم تشاهده.

(٢) سورة الملك، الآية: ٣.

(٣) الدر المنثور ١: ١٦٣ - أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال قالت قريش للنبي ﷺ: ادع الله أن يجعل لنا الصفا ذهباً نتقوى به على عدّونا فأوحى الله إليه إني معطيهم فاجعل لهم الصفا ذهباً ولكن إن كفروا بعد ذلك عذبتهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين فقال: ربّ دعني وقومي فأدعوهم يوماً بيوم فأنزل الله هذه الآية.
وفيه عن أبي الضحى قال: لما نزلت: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ عجب المشركون وقالوا: إن محمداً يقول: وإلهكم إله واحد فليأتنا بآية إن كان من الصادقين فأنزل الله...
وفيه عن عطاء قال: نزل على النبي ﷺ بالمدينة: وإلهكم إله واحد لا إله إلّا هو الرحمن الرحيم - فقال كفار قريش بمكة كيف يسع الناس إله واحد؟ فأنزل الله: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ﴾.

وعلى أية حال فحدوث الكون بسماواته وأرضه دليل أن له محدثاً، وأصول الدلالة على حدوث الكون ككلٍّ هي: التركُّب - التغيُّر - الزمان والحركة، فإنها أدلة قاطعة لا مرّد لها على حدوث الكون بمادته الأولية الأم، إذاً فله محدثٌ.

ولأن الخلق على شتات أجزائه وخواصه منسجم كهيكلٍ واحدٍ ذي أجزاء مرتبطة مع بعضها البعض، فـ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾[1] فذلك دليل وحدة الخالق، فإن من لزامات تعدد الخالق عديدُ الصنع المتفاوت، إضافة إلى استحالة التعدد في الكمال المطلق اللّامحدود، حيث العدد بحاجة إلى مايز بين أصحاب العدد مزيجاً بجهة الاشتراك وذلك تركّب وعجزٌ ونقصٌ في كيان الخالق.

٢ - ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ ولنأخذ مثالاً ماثِلاً بين أيدينا ليلَ نهار، الليل والنهار الأرضيين، والاختلاف افتعال من الخَلف أن يتكلَّف الإتيان خلف الآخر، أو الخُلف أن يختلف عن الآخر تخلفاً عن مسيره أو مصيره، فالاختلاف - إذاً - منه رحمة ومنه زحمة، والأوّل هو المعني من اختلاف الليل والنهار، أن يأتي كلٌّ خلف صاحبه وفق نظام التدبير من الخلاق العظيم. فالليل والنهار كلٌّ مختلفٌ صاحبَه، وليس مختلفاً عن صاحبه متخلفاً عن مسيره، ولا مختلفاً «في» مع صاحبه، وذلك الاختلاف يأتي في أبعاد هي - إضافة إلى اختلاف كلٍّ صاحبه في الظهور - اختلافٌ في البعد الزماني والمكاني، فإننا نجد في كرتنا الأرضية على كلِّ حال ليلاً ونهاراً مع بعض في أفقين متقابلين اختلافاً مكانياً، ونجد كلّاً من الليل والنهار تختلف ساعاته، فأقصر الأيام هو نصف ساعة كما في سويسرا، وأطولها ستة أشهر كما في القطبين، وبينهما عوانٌ من ١٢ - إلى - ٢٠ - إلى ٢٤ ساعة،

(١) سورة الملك، الآية: ٣.

فالحركة اليومية الأرضية على محورها ترسم لها الليل والنهار بمواجهة نصف الكرة أو يزيد مع الشمس، اكتساباً من نورها وحرارتها فيسمى النهار، واستتار الشمس عن النصف الآخر أم يقل، فتدخل تحت الظلّ المخروطي وتبقى مُظلمةً فتسمى الليل، اختلافٌ دائب لكلٍّ من الفرقدين وراء بعضهما البعض حول الأرض.

وعاملٌ ثانٍ هو ميل سطح الدائرة الاستوائية أو المعدل عن سطح المدار الأرضي في الحركة الانتقالية شمالاً وجنوباً، وقضيتهُ ميل الشمس من المعدّل شمالاً أو جنوباً راسماً للفصول، وهو سبب استواء الليل والنهار في خطِّ الاستواء في القطبين.

أما القطبان أنفسهما فلهما في كلّ سنة شمسية تامة يوم واحد وليلة واحدة كلّ منهما نصف سنة، والليل في قطب الشمال نهار في قطب الجنوب وبالعكس.

فالسنة في المنطقتين القطبيتين نصفها ليل ونصفها نهار على التساوي، ثم بينهما وخط الاستواء يختلف كلٌّ من الليل والنهار عن الآخرين من ١٢ ساعة إلى ٢٤، فـ ١٢ عند خط الاستواء، و٢٤ عند الدائرة القطبية، ثم تأخذ في الزيادة في الدائرة القطبية من ١٢ ساعة إلى ٢٤ وإلى شهر فشهرين إلى ستة أشهر، وأعجِب باختلاف زمنيٍّ بين نصف ساعة وستة أشهر!.

كما والسنة كلها حاضرة الفصول الأربعة في مختلف أيامها، فالصيف في الشمال كمصر وأوروبّا شتاء عند أهل الجنوب كـ«ناتال».

وكلُّ ساعات الليل والنهار كائنة حاضرة في كلِّ الساعات حسب مختلف الآفاق في كرتنا الأرضية، فالصباح عندنا مساءٌ عند آخرين وليلٌ عند ثالث وفجرٌ عند رابع وهكذا سائر الأوقات، قضيةَ الكروية لأرضنا، واختلاف أنحاء الأرض قُرباً وبُعداً.

اختلافات ثلاثة مُنضّدة مُنتظَمة، فأصل حدوث كلٍّ بعد الآخر دليل على محدثهما، ونضدُ المحدَث دون تفاوتٍ وتهافتٍ دليل وحدة المحدِث، سبحان الخلاق العظيم.

ذلك! وإن توالي الإشراق والعتمة - فذلك الفجر وذلك الغروب - يهتز له المشاعر الحيَّة، والقلوب النابهة، مهما فقد الإنسان وهلتها وروعتها مع التكرار، ولكن القلب المؤمن تتجدَّد في حسِّه هذه المشاهد، ويظلُّ دائباً في ذكر الله بهذه الآيات المكرورة.

٣ - ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ فإن جريانها هو برياح مسخَّرة بين الأرض والسماء، أم وبطاقات أخرى كشف عنها العلم وكلُّ ذلك من نعم الرحمن ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾[1]. ولو أن هناك آلهة دون الله لكانت هناك رياح متضاربة مُتطاحنة كلٌّ تحمِل إلى جانب، لكن ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾[2].

فجريُ الفلك في البحر آية، واتجاه القلب في أعماق الفطرة إلى ربوبية وحيدة في خِضمِّ البحر الملتطم - شئت أم أبيت - آية ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا﴾[3].

٤ - ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ففي ضمِّ

(١) سورة الرحمن، الآيتان: ٢٤، ٢٥.
(٢) سورة يونس، الآية: ٢٢.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٦٧.

ميْت الماء بميْت الأرض بما فيها من ميت الحبوب، نرى في مثلث الميتات حياةً، سبحان الخلاق العظيم.

٥ - ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ ومهما كان ضمير التأنيث في ﴿فِيهَا﴾ راجعاً إلى الأرض مبدئياً كظاهر التعبير لتقدم الأرض، ولكنه راجع - أيضاً - إلى السماوات لسبق ذكرها، ولأن ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾[١].

فخلق الدواب وبثُّها دون تهافت وتفاوت آية لقوم يعقلون أنهما من إله واحد.

٦ - ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ﴾ و﴿ٱلرِّيَـٰحَ﴾ جمعاً هي في سائر القرآن رياح الرحمة، والريح - إلّا الموصوفة بالطيبة - هي ريح العذاب، وما هبت ريح قطّ إلّا جثا النبي ﷺ على ركبتيه وقال: «اللّهم اجعلها رحمةً ولا تجعلها عذاباً، اللّهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً»[٢].

فهُناك أرياح خبيثة يُعبَّر عنها بصيغة الإفراد ﴿رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾[٣] ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾[٤] ﴿قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾[٥] ﴿ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾[٦] ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾[٧]

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٢٩.

(٢) الدر المنثور ١: ١٦٥ - أخرج الشافعي وأبو الشيخ والبيهقي في المعرفة عن ابن عباس قال: . . . قال ابن عباس: والله إن تفسير ذلك في كتاب الله: ﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ [القمر: ١٩] ﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ. . .﴾ [الذاريات: ٤١] ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢]، ﴿يُرْسِلَ ٱلرِّيَـٰحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ [الروم: ٤٦].
أقول: وهكذا نجد في القرآن كما في آيات الرياح العشر.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١١٧.

(٤) سورة يونس، الآية: ٢٢.

(٥) سورة الإسراء، الآية: ٦٩.

(٦) سورة الذاريات، الآية: ٤١.

(٧) سورة الحاقة، الآية: ٦.